من تاريخ الإرساليات الأجنبية في طرابلس

د. هلا سليمان (*)

«دور الإرساليات الأجنبية في طرابلس».

يعود تاريخ الإرساليات الأجنبية في لبنان، إلى اليوم الذي توسلّت فيه التجارة التبشير لتوسيع نطاق أعمالها، وانسياب مجالاتها الحيوية في منطقة الشرق الأوسط عموماً، باعتبارها الدائرة الخصبة بالعوامل الوفيرة المفضية إلى أغراض الربح، والغنية بأسباب التحرك والانتشار والتبادل المؤدية إلى الثروة وإيجاد مناطق النفوذ.

ويغلب الاعتقاد على أن ذلك التاريخ المشار إليه، بدأ في مساره، عندما دفعت الظروف الموضوعية والذاتية فرنسا إلى توسيع نطاق تجارتها، وحماية مصالحها، قبل أن يتمخض واقعها عن بواكير الثورة الصناعية بمدة طويلة.

لهذا، كان لا بد لتاريخ الإرساليات من أن يرتبط بتاريخ الامتيازات التي حصل عليها الغربيون عموماً، والفرنسيون خصوصاً، وأهمها الامتيازات الأربعة التي وُقعت:

الأولى: بين السلطان العثماني سليمان القانوني، وملك فرنسا فرنسوا الأول سنة ١٥٣٥.

الثانية: بين السلطان أحمد الأول، وملك فرنسا هنري الرابع ((Henri IV) سنة ١٦٠٤.

الثالثة: بين السلطان محمد الرابع وملك فرنسا لويس الرابع (Louis IV) سنة ١٦٧٣.

الرابعة: بين السلطان محمود وملك فرنسا لويس السادس عشر (Louis XVI) سنة ١٧٤٠.

(*) كلية الآداب والعلوم ـ الفرع الثالث ـ (طرابلس)

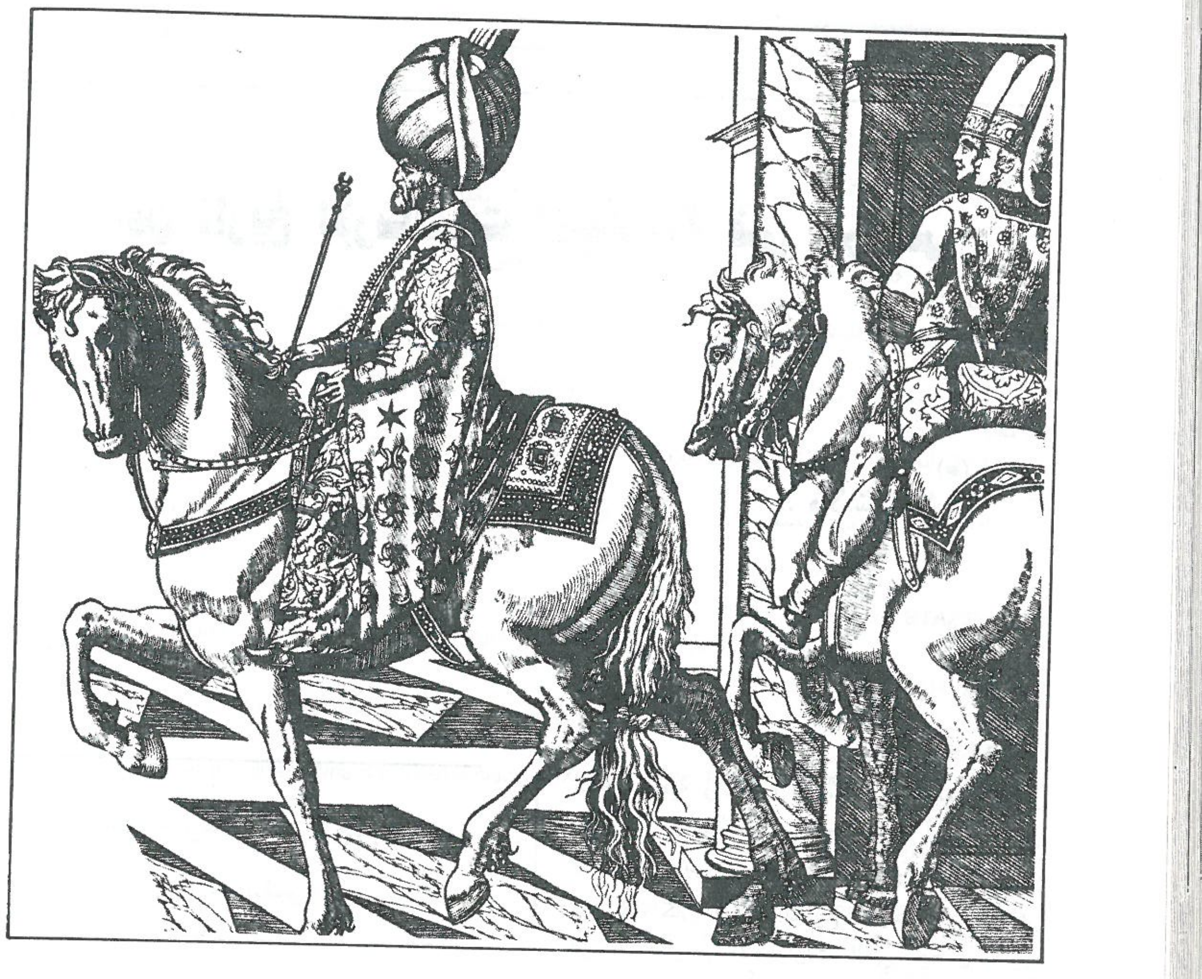

□ السلطان سليمان القانوني ممتطياً صهوة جواده.

وضع السلطان سليمان القانوني وملك فرنسا فرنسوا الأول (François 1er) هدفين لأول اتفاقية، الأول ذو طابع مدني تجاري؛ والثاني ذو طابع ديني. فقدت النسخة الأولى من تلك الاتفاقية - الامتياز، لكن مضمونها الأساسي بقي، نظراً لكون كل امتياز منح فيما بعد، كان ينصّ على أهم ما ورد في الامتياز السابق.[١]

كانت الامتيازات في أول الأمر، بمثابة تسهيلات يمنحها السلطان العثماني إلى التجار الأجانب، وكان باستطاعته سحبها في أي وقت يشاء، لكنها اكتسبت سمة الاتفاقيات الثنائية.[٢]

وفي القرن السابع عشر، ونظراً لتزايد الحجم التجاري الفرنسي في الثغور والمرافىء العثمانية وخاصة في لبنان، ارتدت مؤسساتهم طابعاً قانونياً ملحوظاً، لم يكن ليتعارض مع السياسة العثمانية آنذاك. وبذلك لم يحصل الجانب الفرنسي على حق التجارة وحسب، بل على جملة من الامتيازات الأخرى التي أتاحت لمؤسساته التجارية، دخول الموانىء العثمانية

□ الملك فرنسوا الأول.

تحت حماية العلم الفرنسي، كما أتاحت لزوار الأماكن المقدسة المسيحية - حرية الزيارة ثم حرية الإشراف عليها وممارسة طقوسهم الدينية.[٣]

ارتدت هذه الامتيازات فيما بعد طابع الحقوق الخاصة المسلّم بها، والتي لا يمكن نسخها، كما حصل أصحابها على إمكانية توسيعها لكي تشمل أيضاً من يتعامل معها من السكان المحليين. وبفضلها أُعفي الأشخاص الذين تمتعوا بها، من الضرائب، واستثنوا من سلطة المحاكم التركية الشرعية، وغدت ممتلكاتهم مصونة من المصادرة.[٤]

وعلى هذا النحو، أخذت المصالح التجارية المدعومة بالسياسة، كما أخذت المصالح الدينية المدعومة بالتبشير، تمشي مُترافقة محاولة أن تجد زبائن صالحين للنشاط التجاري والسياسي معاً.

وفي القرن السابع عشر، أصبحت الحاجة ماسة إلى ضرورة إعادة النظر في الشأنين التجاري والسياسي وتنظيمهما. فأنشئت الإرساليات الدينية في روما، وفي عدة بلدان أوروبية، وتقاطر المرسلون إلى المنطقة، من كبوشيين وفرنسيسكان ويسوعيين وغيرهم.[٥] وراح سفراء الدول العظمى في الاستانة يساندونهم،[٦] ويمارسون بوساطة حكومات بلدانهم ضغوطات على السلطنة العثمانية، بحيث استطاعوا إكراه السلاطين العثمانيين، واحداً بعد الآخر، على تقديم تنازلات أكبر. فصار المرسلون يعملون بتؤدة وبنفس طويل، وصبر عجيب، وسبيلهم إلى ذلك تحريك الحالة الثقافية والتبشيرية في لبنان على وجه الخصوص،[٧] وفي سائر المناطق التي حلّوا بها عموماً.

ومع بدايات القرن التاسع عشر، أصبحت

طرابلس مرتعاً لمجموعات من الإرساليات الأجنبية راحت تتوافد إليها، نظراً لأهميتها التجارية وموقعها الستراتيجي، بوصفها همزة وصل هامة، آنذاك بين الشرق والغرب، ومعبراً إلى الأراضي المقدسة التي يحجُّ إليها العديد من الشعوب.

هكذا تمكنت الإرساليات الأجنبية من النفاذ إلى داخل البلدان والمناطق التي حلّت فيها. وصارت تمارس أدواراً ثقافية عامة، لا عهد لهذه البلدان بها. وقد شكلت هذه الأدوار أعمالاً وعلاقات مع السكان، كانت بمثابة ملامح أولية للتحديث، تارة عن عفوية، وطوراً عن قصد وتصميم، إلى أن أصبحت بالاستمرار، عوامل تحديث وتجديد على كافة الأصعدة الاجتماعية والثقافية والتربوية، بصرف النظر عما كان لها، بالتالي من عواقب وتبعات على الأوضاع العامة لهذه المناطق بوجه عام.

وقبل أن نسترسل في الحديث عن أعمال هذه الإرساليات في طرابلس، لا بد لنا من إلقاء نظرة على ما كانت عليه حال الأوضاع الثقافية، وأحوال المؤسسات التعليمية في هذه المدينة التي عرفت مراقي المجد والازدهار عَبْرَ تاريخها الحديث.

لقد كانت طرابلس في القرن التاسع عشر، وعند منتصفه على وجه التحديد، تعاني مما تعانيه سائر الولايات العثمانية من تخلّف مُطبق على سائر جوانب الحياة الاجتماعية، وخاصة التعليمية منها. فكانت على سبيل المثال، خالية من مدرسة بالمعنى الحديث. وكانت المساجد تقوم بهذه المهمة الجليلة، مع بعض المدارس والكتاتيب القديمة، بقدر ما تستطيع[٨] فتلقّن الناشئة القرآن والحديث وبعض العلوم الدينية واللسانية. وكان بعض الذين يتلقون العلم في هذه المساجد والمدارس يتوجهون فيما بعد شطر مصر للمتابعة والتحصيل في الجامع الأزهر. فيأخذون عن علمائه العلوم العربية من صرف ونحو وبلاغة ومنطق.[٩]

أما أنظمة التدريس فقد كانت أسيرة الفوضى والاضطراب، خاصة في الكتاتيب التي كانت تلحق غالبيتها بالمساجد، إذ كان يحضر الدروس من يشاء من التلاميذ، ويتغيّب عنها من يشاء، وساعة يشاء، وكان المعلم عندما ينتهي من تدريس فرع من الفروع الدينية أو اللغوية، ينتقل إلى فرع آخر، بعد أن يكتب لكل تلميذ حضر عند تدريس هذه المادة، شهادة مُذيّلة بإمضائه. أما حلقات التدريس التي كان يعقدها بعض الشيوخ في المساجد المخصصة للصلاة، فكانت تقوم على نطاق أوسع من الكتاتيب، إذ كان الناس يتحلّقون، كل جماعة حول معلم معيّن، يُلقنهم العلم الذي اشتهر به.[١٠]

وكان يقابل هذا الوضع المتردّي، ضحالة مماثلة في الكتاتيب والمدارس المسيحية التي كانت مقصورة على تلقين مبادىء القراءة والكتابة والحساب وأصول الدين المسيحي.[١١] وإزاء هذا الواقع المتردي، كانت الحاجة ماسة إلى التجديد، الأمر الذي شكّل تربة خصبة بالنسبة للإرساليات الأجنبية. فأخذت تتقاطر إلى طرابلس، مستفيدة، كما أسلفنا، من الامتيازات التي منحتها السلطنة العثمانية إلى الدول الأوروبية العظمى آنذاك. وكانت طرابلس قد عرفت طليعة هذه الإرساليات منذ عام ١٦٢٩ إذ وفد إليها الآباء الكبوشيون، وابتنوا لهم فيها ديراً في محلة كان يسكنها المسيحيون بين حي النوري وخان العسكر. وكانوا، أغلب الظن، رعاة لجالية لاتينية يتعاطى أفرادها التجارة بين طرابلس وأوروبا. وقد عملوا بالتالي على تلقين أولاد الجالية مبادىء اللغة الفرنسية مع شيء من عقيدة الكنيسة الكاثوليكية.

وبعدما بنوا لهم أديارا في صيدا وحلب ودمشق وطرابلس وصليما،[١٢] اقفلوا هذه الأديار في القرن الماضي، وباعوا دير طرابلس إلى «أخوة المدارس المسيحية» (Les Frères des écoles chrétiennes) عام ١٨٨٦،[١٣] وسيأتي ذكرهم تفصيلاً في هذا البحث، بعد

التحدث عن الإرساليات التي سبقتهم في هذا المجال.

ـ **اليسوعيون**: قدموا طرابلس سنة ١٦٥٠، واستمروا في عملهم الرسولي فيها حتى سنة ١٧٧٤، ثم ارتحلوا عنها إثر إلغاء رهبنتهم.[١٤] والحق أننا نجهل تماماً حقيقة ما فعلوا طوال مئة وأربعاً وعشرين سنة، سوى أنهم أنشأوا ديراً وكنيسة تسلمها الآباء اللعازاريون عندما تمّ إلغاء الرهبنة اليسوعية في ٢١ تموز ١٧٧٣ بأمر من البابا أكليمنغوس الرابع عشر (Clement XIV)، تأخر وصول أمر الإلغاء إلى الشرق حتى ١٧٧٦، فألح المسيو (دفرجار) (DEVERGERES) سفير فرنسا وقتئذ لدى الباب العالي، ومن بعده خليفته (الكونت سانت برياس) (Le Conte de St Priest) على الملك لويس السادس عشر (Louis XVI) لكي يطلب من رومية مرسلين افرنسيين ليخلفوا اليسوعيين في الشرق، محافظة على العلاقات فيما بينهم. فصدر الأمر من لدن الكرسي الرسولي بناء على طلب الملك (لويس السادس عشر) إلى الأب جاكييه Jacquier، الرئيس العام لجمعية الآباء اللعازاريين ليحلّوا محل اليسوعيين في الشرق.[١٥]

ـ **اللعزاريون** تأخر الآباء اللعازاريون في تسلم ممتلكات اليسوعيين مدة تسع سنوات حتى كان عام ١٧٨٣ حين كلّف الأب جوزيف غوندلفي (Joseph, Gandolfi) بالإشراف على الدير في طرابلس. وكان الدير والمدرسة قد تهدما بفضل الهزة الأرضية التي عصفت بالمنطقة يومذاك.[١٦] وظل الدير خرباً لمدة ٥١ عاماً، إلى أن توالت المساعدات على الآباء اللعازاريين. فرمموا الدير، وركزوا أعمالهم الرسولية في ما جاور الدير من طرابلس، وفي القرى المسيحية المجاورة، وقد امتد عملهم فيما بعد حتى بلغ البترون ودوما.[١٧]

كان اليسوعيون قبل رحيلهم، قد تركوا مدرسة صغيرة للصبية في بلدة زغرتا ورثها فيما بعد الآباء اللعازاريون مع بيت للراحة في اهدن. وقد استمر وجود الآباء اللعازاريين في طرابلس حتى عام ١٩٥٠، حين أرغمهم التنظيم المدني على مغادرة المدينة بسبب توسيع الشارع المحاذي لمركزهم. فانتقلوا إلى مجدليا، على طريق زغرتا، حيث لا زالوا يتابعون رسالتهم في قرى لبنان الشمالي، وبخروجهم من طرابلس، ابتدأ دور راهبات المحبة (Les Sœurs de Charité) وهو دور فعال سيكون له آثار كبيرة على صُعُد إنسانية مختلفة.

ولما كان العمل في مدارس قرى الجبل، على العموم، وبنوع خاص مدارس الإناث، مهملاً تماماً،[١٨] فقد ارتأى الآباء اللعازاريون إنشاء مدارس للإناث للقيام بالأعمال التبشيرية والتعليمية، باعتبار أن الرجال كانوا يسخرون من تعليم الأنثى، ولا يرون فائدة من تلقينها علوماً هي وقف على الرجال، وأن إناطة تعليم الأنثى دينياً وعلمياً وبراهبات هو أجدى وأنفع من الآباء، فراحوا يسعون في إحضار راهبات المحبة للقيام بهذه المهمة.

ـ **راهبات المحبة (Les Sœurs de Charité)**: تمكن الآباء اللعازاريون من استقدام أربع راهبات من رهبنة المحبة، واشتروا لهنّ بيوتاً صغيرة لسكناهن، وقد وصلن إلى طرابلس عام ١٨٦٣،[١٩] وأخذن منذ ذلك الحين يتقاطرن إلى طرابلس.

وفي سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١، بنت الجمعية ديرها، ثم باشرت ببناء كنيستها عام ١٨٧٢ وديرها بعد عام. وكان تكريسها في الثاني من شباط في ذات السنة، وقد ساهمت في نفقات البناء عائلة الأخت رامل (RAMEL) الرئيسة الأولى للمدرسة والدير معاً.[٢٠]

كان الدير والكنيسة قد بُنيا على أرض واسعة، كانت من قبل بستاناً لرجل يدعى «حكير»، مقابل مبلغ من المال، على أن تدفع الراهبات سنوياً، بالإضافة إلى ذلك، مبلغ ثلاثمئة قرش تركي ذهبي.[٢١]

□ السلطان أحمد الأول.

سنة ١٩٤٨ تمت تصفية هذه الذمة مقابل مئة وخمسين ألف ليرة لبنانية دفعتها الراهبات لورثة «آل حكير».

وفي الثالث عشر من أيلول ١٨٧٥ جرّ سعادة مدحت باشا إلى الدير ماء المدينة، وفي هذه المناسبة عُلقت رخامة تؤرخ هذا العمل المبرور للوالي التركي.(٢٢) وكانت لا تزال قائمة على حوض في المدرسة حتى ١٩٥٧، وهو تاريخ استبدال ماء المدينة بمياه نهر رشعين.

وقد بدأت الراهبات عملهن التعليمي بعدد قليل من التلميذات لم يتجاوز الخمسة والثلاثين. ولكنهن كنّ مهتمات بالأيتام واللقطاء الذين أوتي بهم إلى الدير ابتداء من ١٨٦٩. وقد اهتمت الراهبات اهتماماً دينياً وتعليمياً وغذائياً، ويلاحظ أن أولئك الأيتام واللقطاء كانوا في معظمهم عرضة للموت بعد فترة يسيرة من الاحتضان.

وكان هؤلاء الأطفال يُعمدون فيما بعد في الكنيسة اللاتينية. وكان بعضهم في حال بلوغه يلتحق بزوجين لا أولاد لهما وينتسبون إليهما عن طريق التبني. وكان منهم من يعمل لاحقاً في معمل لحل الحرير الذي أنشأته الراهبات أنفسهن عام ١٨٨١، وبقي يعمل حتى عام ١٩١٤.(٢٣)

لكن هذه التبعة التي حملتها الراهبات على امتداد وجودهن في طرابلس، ما كانت لتثنيهنّ عن القيام بالعمل التدريسي، لذلك ما إن حلّت سنة ١٨٦١ حتى شرعت راهبات المحبة بورشة عمل، لم تتوقف على طرابلس وحدها، وإنما تعدتها إلى كل الاتجاهات. فكان مجموع مدارسهن في الشمال اثنتين وعشرين مدرسة، وواحدة في سوريا.(٢٤)

بالإضافة إلى هذا كله، فقد أوكلن إلى بعضهنّ شئون المستوصف والاهتمام برعاية الأيتام، والإشراف على معمل حلّ الحرير، وإدارة المدارس وإلقاء الدروس فيها. وكان هدف راهبات المحبة، كغيرهن من المرسلات والمرسلين الكاثوليك وغير الكاثوليك سواء بسواء، التبشير بالانجيل. فالراهبات والرهبان مبشرون قبل كل شيء، والبلد الذي يحملون إليه كلمة البشارة (الانجيل) هو حقل العمل المسيحي الذي ينبغي أن يعملوا فيه، مهما كان دين الشعب الذي يحلّون في أرضه.

وفي ١٣ ـ ١٢ ـ ١٩١٤، صدر أمر الحكومة العثمانية بإجلاء الراهبات الفرنسيات وسواهن إلى فرنسا. أما الراهبات الوطنيات فانتقلن إلى زغرتا، وأصبح الدير والمدرسة بأيدي الحكومة التركية، ولما دخل الجيش الفرنسي إلى طرابلس في ٣ ـ ٢ ـ ١٩١٩ عادت راهبات المحبة إلى طرابلس، وأجرين ترميمات في الأبنية، وحوّلن معمل حلّ الحرير إلى مدرسة مجانية.(٢٥)

ـ **الآباء الكرمليون**: من الإرساليات الكاثوليكية التي كانت في القرن التاسع عشر قائمة على صعيد العمل التبشيري والتعليمي إرسالية الآباء الكرمليين، المنتسبين إلى جبل الكرمل قرب حيفا.(٢٦) وقد دخلوا شمالي لبنان سنة ١٦٣٤، وأقاموا قرب بشري، ثم استأنفوا السكن في جبل الكرمل سنة ١٧٢٠، وعادوا إلى لبنان وكرسوا وجودهم في طرابلس ببيت صغير لم يلبث أن تحول إلى دير بجانبه كنيسة لم تعد قائمة اليوم. وظلوا قائمين على خدمة الطائفة اللاتينية في المدينة، إلى أن قرروا عام ١٨٧٥ أن يفتحوا مدرسة تعلم اللغات العربية والفرنسية والإيطالية.(٢٧) ويغلب على الاعتقاد أن وجودهم في طرابلس يرقى إلى أبعد من ذلك، لأن رائد المسرح الطرابلسي ميخائيل ديبو قد درس في مدرسة الكرمليين، الفرنسية والإيطالية، والفن عام ١٨٥٩، كما يؤكد ذلك العلامة عيسى اسكندر المعلوف في كتابه «دواني القطوف» ص ٣٥٤. ولا سبيل إلى التأكد من صحة هذا التاريخ، لأن لا وجود لوثائق الدير اليوم، لأن الكرمليين اللبنانيين عندما استقلوا عن كرملي أوروبا في إدارة المدارس والرعايا اللاتينية في لبنان خاصة، وجدوا أن أخوتهم الإيطاليين حملوا معهم كل تقاريرهم وملفاتهم ووثائقهم لمئات السنين إلى روما. حيث أودعت في ربائد الرهبنة العامة.(٢٨)

لقد كانت مدرسة الآباء الكرمليين في طرابلس تعلم العربية والفرنسية والإيطالية، وكان من تلامذتها الشيخ عبد الجليل من الميناء. وكان أول مدرائها المستشرق الأب «ستانسلاس» الذي كان ذا اعتبار واحترام لدى المسؤولين الأتراك في ولاية طرابلس.(٢٩)

ـ **الفرنسيسكان**: كان الفرنسيسكان من أقدم الرهبانيات التي اتجهت نحو الشرق، إذ أنهم منذ عام ١٢٢٠، أي بعد عشر سنوات من نشوئهم في الغرب، بدأوا يهتمون بتلقين بعض تلاميذهم العربية. وقد اشتهر منهم ميشال سكوت (Michel Scot) (١١٧٥ ـ ١٢٣٥) الذي اكبّ في طليطلة على درس العربية، ونقل عدداً كبيراً من آثارها. واشهر منه الراهب الإنكليزي روجار باكون (R. Bacon) (١٢١٤ ـ ١٢٩٢) وهو فريد عصره في العلوم الفلسفية والطبيعية، وقد بذل جهده لنشر الدروس الشرقية وعلى الأخص العربية.(٣٠)

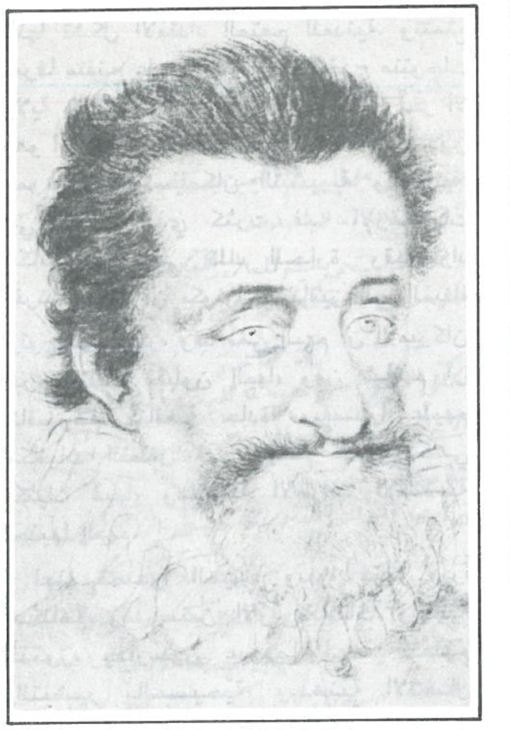

□ الملك هنري الرابع.

بدأ الفرنسيسكان يفدون إلى الشرق منذ القرن الثالث عشر، فنزلوا بدمياط سنة ١٢٤٦، وفي القاهرة سنة ١٣٢٠، وفي بيروت سنة ١٤٤٠، وحلب سنة ١٥١٧، وفي طرابلس الشام سنة ١٥٨٢، وفي صيدا والناصرة سنة ١٦٣٦، وكلفوا بخدمة الرعايا.(٣١)

ومنذ حلول الفرنسيسكان في طرابلس، سارعوا إلى افتتاح مدرسة لهم في الميناء،

لأنها تشكل الامتداد المتمم للمدنية. وتتمتع بمرفأ منفتح على العالم، ومنه تخرج منتوجات ولاية طرابلس إلى أوروبا. وثمة سبب آخر ألا وهو أن حارة النصارى في الفيحاء كانت دون طموحات الفرنسيسكان التبشيرية والرعائية، في الوقت الذي كثرت فيه الإرساليات الكاثوليكية في تلك الحارة. وقد أراد الفرنسيسكان أن يكونوا السباقين إلى الميناء لولوج حقل بكر، وقد نُمي إليهم أن الأميركان البروتستانت مقبلون إليها، ومن شأنهم أن ينافسوهم منافسة حادة، ويُفسدوا عليهم إمكانيات التغلغل في الجسم الأورثوذكسي الكثيف فيها، وملامسة الأطراف الإسلامية لجذبها إليهم.

لهذا قصدوا الميناء وبنوا فيها ديراً لسكناهم، ومدرستين: الأولى للاناث، والثانية للذكور، يمارسون عبرهما مهمة التعليم والتبشير بالمسيحيّة، وبذهنية الاتصال بالموارنة، والروم الأورثوذكس، والروم الكاثوليك، والأرمن الكاثوليك، وبغيرهم من الهراطقة المنشقين.[٣٢]

وقد تم ذلك قبل أن ينجز الفرنسيسكان بناء كنيستهم «مار يوسف» في طرابلس، بدليل أن الدير والكنيسة والمدرستين قد تم بناؤها سنة ١٨٥٥. وكانت المدرستان تعلمان اللغتين الفرنسية والإيطالية. وفي عام ١٨٩٧ بلغ عدد الطلاب في مدرسة الفتيان خمسين طالباً وبلغ عدد الطالبات في مدرسة الإناث سبعين طالبة.[٣٣]

ولم يلبث الفرنسيسكان أن ألغوا مدرسة الإناث واكتفوا بمدرسة الذكور، لهذا كانت تأثيرات هذه المدرسة محدودة، نظراً لبقائها ابتدائية، لكنها كانت من ناحية ثانية مدخلاً لكثير من الطلاب الذين التحقوا فيما بعد بمدارس طرابلس أو عينطورا أو بيروت، فحصلوا علوماً عالية، ومراكز ذات شأن في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

- الانجيليون (البروتستانت): كان المرسلون الانجيليون شيئاً غريباً بالنسبة للشرقيين، كاثوليك، وأرثوذوكساً، لأنهم كانوا في نظر هؤلاء يشكلون بدعة جديدة تمس جوهر معتقداتهم، وتزلزل إيمانهم بحقيقة مسيحيتهم، وتلغي تراثهم المرتبط بأرض المسيح، وتنفي استمرار ذلك التاريخ المتصل بأول المسيحية الشرقية، لهذا كان من العسير على البروتستانت في النهاية، النفاذ إلى عالم المسيحيين المحصّن بالكنيسة الجامعة (الكاثوليكية) وبالكنيسة المستقيمة الرأي (الأرثوذكسية). ولكن مع ذلك دخل البروتستانت الشرق، وأنشأوا رعية «انجيلية»، وبنوا كنائس ومدارس وملاجيء ومستشفيات، ومارسوا نشاطهم على أكثر من صعيد.

لقد دخل الانجيليون الشرق في الخامس عشر من كانون الأول سنة ١٨٢٠.[٣٤] وقد اتخذوا المطبعة وسيلة جديدة للنفاذ إلى هذه المنطقة، فاتخذوا جزيرة مالطا قاعدة لنشاطهم في الشرق الأدنى؛ إذ قرر مجلس الإرسالية في الولايات المتحدة الأميركية اتخاذ تلك الجزيرة محطة تعنى بنشر الكتب والكراريس للتبشير بدين المسيح حسب المذهب الانجيلي.[٣٥] واهتم المبشرون في بادىء الأمر، بترجمة نشرات التبشير المكتوبة باللغة الإنكليزية، إلى اللغات العربية واليونانية، والإيطالية والأرمنية والتركية، وإرسالها إلى سائر بلدان المنطقة. ولما بدأت أعمال أولئك المرسلين تثمر، نقلوا المطبعة إلى بيروت سنة ١٨٣٤.[٣٦]

وجدت الإرسالية في لبنان حالة ثقافية لا يحسد عليها، فالأمية منتشرة بين السكان، والمدارس نادرة، وإن وُجدت، فهي كناية عن كتاتيب صغيرة ملحقة ببعض الكنائس والمساجد لا تروي غليلاً - وعندئذ توجهوا بنشراتهم إلى أورثوذكس اليونان وسوريا وقبرص ومصر، وكاثوليكي إيطاليا وجبل لبنان، ومسلمي العالم العربي، وبذلك حاولوا

"حفظة الدستور المكرم والمشير المفخم نظام العالم مدير امور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأي الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد اركان السعادة والاجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى والي ولاية بيروت الحائز على الوسام المجيدي من الدرجة الاولى وعلى الوسام العثماني من الدرجة الثالثة وزيري عزيز باشا ادام الله تعالى اجلاله؛

وحفظة افتخار الاعالي والاماثل مستجمع جميع المعالي والمفاخر المختص بمزيد عناية الملك [illegible] محمد افندي من رجال دولتي العلية ومتصرف سنجق طرابلس الشام الحائز على الوسام المجيدي المذكور من الدرجة الثالثة دام علوه

عندما يصلكما توقيعي الملكي الرفيع اعلما انه تباعاً للدعوى التي بطلب بترميم وتوسيع المدرسة الموجودة في دير الكبوشيين قد تبودلت المراسلات بين وزارتي الداخلية والعدل وافضي بها الى مجلس الدولة قسم الداخلية.

وبعد البحث والتدقيق اقر المجلس المذكور في مضبطة انه بالرغم من ان المدرسة قد بنيت بدون ما ذونية فلا بأس من ترميمها لجزء من الدير. ولكن فتح باب على ارض مسجد قديم هدم غير سالم من المحذور، وان ترميم المدرسة الذي يكون بشرط سد الباب لايتعلق الا باذني السامي. ولدى اطلاعي على القضية اصدرت ارادتي السامية القدر امراً بالترميم على الوجه المذكور اعلاه وطبقاً لذلك اصدر ديواني الملكي هذا الامر الجليل

وانتما ايها الوالي والمتصرف للوجيه اليهما اسرعا او اعزا على ترميم وتوسيع المدرسة المذكورة بشرط ان يسد الباب المفتوح على عرصة المسجد القديم واسرعا على ان لاتوجد [illegible] السهر [illegible] على ان لا يحدث ما يعارض رضائي الملكي من اية ازمال او ازعاج بأية صورة وتحاشيا بكل ما في وسعكما ذلك. كتب في ٢٨ ذي الحجة الشريفة ١٣٠٨

على طرفه: قد قوبل النص
المرسل اليها: حفظة والي بيروت ومتصرف سنجق طرابلس الشام (٢١٩)
قد سجل هذا الفرمان حرفياً في الصحيفة ١٧ من جريدة ادارة الاوراق.

المترجم المهندس علي [illegible]

□ ترجمة فرمان السلطان عبد الحميد إلى والي بيروت ومتصرف طرابلس يامرهما فيه بالسماح لأخوّة المدارس المسيحية بترميم دير الكبوشيين وبناء المدرسة.

□ السلطان محمود الأول.

خطف بريق الجهود التي بذلها المرسلون الكاثوليك عبر مئتي سنة ويزيد.

وعقب انحسار الحملة المصرية عن ولاية طرابلس وسائر الولايات العثمانية في المنطقة. دخل الانجيليون طرابلس، واتخذوا منها محطة للانطلاق إلى اهدن، ومناطق أخرى من الشمال وسوريا، بعدما استأجروا بيتاً جعلوه مركز نومهم وعملهم في التبشير والوعظ.[٣٧]

ويبدو أن امتداد الإرسالية، برغم نجاحها في طرابلس، من خلال إنشائها مدرستيها ومستشفاها، بقي محصوراً، فرغبت في الامتداد إلى مناطق أخرى، وكانت زحلة أولى هذه المحطات. وقد قررت هيئة إرسالية زحلة إنشاء ثلاثة محافل لكل من: طرابلس، ولبنان، وصيدا، فاقيم محفل صيدا سنة ١٨٨٥، واقيم محفل طرابلس سنة ١٨٩٠، ومحفل لبنان سنة ١٨٩٦ نتيجة انشقاق في كنيسة بيروت، استمر منذ ١٨٩٢ حتى ١٩٠٤. وقد استمر الوضع على هذه الحال إلى أن أعلنت الأنظمة المتبناة منذ سنة ١٩١٧، أن كنيسة بيروت الوطنية الانجيلية هي مستقلة في كل ما يتعلق بها، وأن علاقتها مع المحافل التي لا تعترف بسلطة الأساقفة Presbyteriennes في سوريا ولبنان، هي ودية وأخوية.[٣٨]

وقد أنشأ الانجيليون، مدرسة في طرابلس في حي النوري، وكانت تتألف من طبقتين: السفلى منهما خاصة بالتعليم، والعليا للداخليات، وملعب. وقد أطلق على المدرسة اسم «مدرسة طرابلس للبنات».[٣٩] وكان المنهج المدرسي مقتصراً على اللغة العربية وبعض العلوم والجغرافيا والتاريخ واللغة الأنكليزية بشكل بدائي.[٤٠] هذا بالإضافة إلى التعليم الديني الهادف إلى جذب التلميذات نحو البروتستنتية كهدف نهائي. كما أن الإرسالية أنشأت مستشفى، ووفقت بين عملها التبشيري والتطبيبي، وإيواء اليتامى والفقراء، وافتتاح المدرسة العلمية، ومدرسة الأحد والتبشير، وخلق جيل من الفتيان يحمل وعياً دينياً وتربية أكثر انفتاحاً في وسط تقليدي محافظ. واستطاع المرسلون الانجيليون أن يتحركوا بحرية أفضل من المرسلين الكاثوليك الذين أغلقت مدارسهم جميعاً بما فيها مدرسة راهبات المحبة، لدخول دولهم الحرب ضد تركيا عام ١٩١٤، بينما بقيت مدرسة البنات الأميركية مشرعة الأبواب، تستقبل الطالبات وتنفذ البرامج التي ارتقت ارتقاءً محسوساً. فأدخلت الرياضيات والطبيعيات والفلك والفلسفة إلى مناهج المدرسة، ونالت رضى السلطات العثمانية الحاكمة لأن أميركا لم تشارك أوروبا في الحرب ضدها.

وفي سنة ١٨٥٤ أنشأت الإرسالية مدرستين للذكور، واحدة في طرابلس، والثانية في الميناء.[٤١] ومنذ سنة ١٩٠٠ جددت مدرسة طرابلس، وتعرضت للانتقال من مكانها مراراً إلى أن استقرت في القبة. وكان الشاعر رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) استاذ اللغة العربية فيها.[٤٢]

الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية:

تأسست هذه الجمعية سنة ١٨٨٢ من نبلاء روسيا وأشرافها، برئاسة الغراندوق سرجيوس، خامس أولاد الامبراطور اسكندر الثاني، قيصر روسيا وحمايته، لأجل مساعدة الروس الذين يفدون سنوياً إلى فلسطين لزيارة الأماكن المقدسة. ولأجل فتح مدارس ابتدائية في فلسطين، تعلّم أبناء الأرثوذكس عقائد إيمانهم وبعض العلوم الضرورية.

وقد ارتكزت الجمعية في فلسطين، فأسست مدرستين عاليتين، واحدة للذكور في الناصرة، والثانية للإناث في بيت جالا، إلى جانب عشرات المدارس الابتدائية، الغاية منها تكوين كوادر من المعلمين والمعلمات للقيام بمهمة التعليم في المدارس بأحدث الأساليب. وقد انتشرت الجمعية فيما بعد في العديد من أرجاء المنطقة، إلى أن تحولت إلى شمال لبنان، ودخلت طرابلس، وامتدت إلى انطاكية وحلب وعمت كل سوريا،[٤٣] وقد عمّمت التعليم المجاني في كل مدارسها بدون استثناء. ونهت الرؤساء والمدراء نهياً مطلقاً عن تكليف أحد الأولاد، غنياً كان أو فقيراً، أن يدفع غرشاً واحداً مدة وجوده فيها.

وسنّت الجمعية لمدارسها قوانين هي غاية في الدقة والضبط، روعيت فيها صحة الأولاد الجسدية ونشاطهم العقلي وسيرتهم الأدبية لم تترك حاجة لمستزيد.

وما أن أطل عام ١٨٨٧ حتى باشرت مدارس الجمعية عملها في طرابلس، ولم تمضي ثلاث سنين حتى كان لها مدرستان في طرابلس واحدة للذكور والثانية للأناث، واثنتان مماثلتان في الميناء، فتسارع أبناء الطائفة إليها يتعلمون اللغة العربية، ومبادىء اللغة الروسية، والحساب والتاريخ والجغرافيا والتعليم المسيحي بحسب المذهب الأورثوذكسي.[٤٤] ثم انتشرت مدارس الجمعية في قرى بشمزين واميون وبطرام وكوسبا في الكورة حيث المذهب الأورثوذكسي مئة بالمئة.

□ الملك لويس السادس عشر.

وقد اتخذت هذه المدارس، في نظر الحكومة العثمانية، واقع المدارس الطائفية الوطنية. وفي عام ١٩٠٢ طلبت الحكومة الروسية من الحكومة العثمانية أن يكون لمدارسها قوانين مميزة بإشراف الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية، وأن تُعطى الحقوق والامتيازات التي تتمتع بها مدارس الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية، شرط ألا تكون مشمولة برعاية روسية، كما هي الحال مع المدارس الأخرى، بل تكون في ممالك الدولة العلية، حرّة في تحرير دروسها

القانونية بحسب القواعد والأصول. وقد لبّت الحكومة العثمانية هذا الطلب، وصدر الأمر العالي إلى نظارتي الخارجية والمعارف بوجوب تبليغه إلى المراجع المسئولة.[٤٥]

وقد استمرت مدارس الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية في ممارسة أعمالها التبشيرية والتعليمية حتى سنة ١٩١٧ حين ألغت الحكومة الثورية الاشتراكية البلشفية جميع التزامات القياصرة الخارجية.

- جمعية «أخوّة المدارس المسيحية» Les Frères des écoles Chrétiennes

اتّسمت جمعية «إخوة المدارس المسيحية» بلقب «المعلم المربّي» بحكم دوافع نشأتها وطبيعة أعمالها في التزام شؤون الأولاد وتعليمهم وتربيتهم تربية دينية مسيحية. فبعد أن تأسست في فرنسا، وشاعت مدارسها في مدنها وقراها، انتشرت في أرجاء أوروبا، ساعية إلى تحقيق أهدافها الأولى في التهذيب الخلقي والتعليم المجاني الديني والدنيوي وفق طرائق مبتكرة، التزمها أخوة تخرجوا في أصول التدريس، فأصابوا بذلك نجاحات ضمنت لهم شهرة واسعة، وجعلتهم رُسلاً مميّزين عن سواهم من الرهبنات الكاثوليكية الغربية في تربية الصبية روحياً، وتلقينهم علوم العصر الرائجة يومذاك. وكان قدومهم إلى الشرق سنة ١٨٦٨. ثم أتوا إلى سوريا ولبنان سنة ١٨٨٩ - فسكنوا بيروت، ثم طرابلس، واللاذقية، والاسكندرية، وبيت شباب.[٤٦]

لقد حطّوا رحالهم في طرابلس سنة ١٨٨٦ على أثر مسعى قام به الفيكونت دي بتيتفيل (Vicomte de Petiteville) قنصل فرنسا في بيروت لدى الحكومة الفرنسية، ولم يمضِ على وصولهم مدة أسبوعين، حتى اتخذوا قراراً بمباشرة العمل في دير الآباء الكبوشيين الذي استأجروه منهم.[٤٧] ولم يلبثوا أن اشتروا هذا الدير عام ١٨٩٠، وبذلك بدأت المرحلة الأولى من نشاط «الإخوة» في طرابلس.[٤٨]

ويطيب لنا الآن أن نخص هذه الجمعية بالدرس، نظراً لأهميتها على الصعيدين التعليمي والتربوي، ولما كان لها من أثر على الصعيد الاجتماعي.

لقد حوّل الإخوة دير الآباء الكبوشيين إلى مدرسة عرفت باسم «مدرسة العائلة المقدسة». وقد افتتحت في الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٨٦، وقد استطاعت أن تكسر طوق السلبية الذي أُحيطت به من قبل السلطات العثمانية ومن الأهالي معاً. وتابعت عملها في مدّ وجزر في ظروف اجتماعية وسياسية صعبة. وعقب مرور أربع سنوات أزمع الإخوة إنشاء مدرسة جديدة في الميناء.[٤٩]

وقد عرفت هذه المدرسة باسم «مدرسة القديس بولس...»وبدأت بالتدريس واستقبال الطلاب. وتشير وثائق «الإخوة» أنهم وُهبوا أرضاً ومنزلاً في عكار لإنشاء مدرسة فيها، ولا تذكر الوثائق أية معلومات عن مكان هذه المدرسة بالتحديد، مكتفية بذكر لفظة عكار. ولم يسعفنا التخمين بنتيجة مؤكدة، اللهم إلا من حيث عدد المدارس التابعة للإخوة، ومدى انتشارها التعليمي في طرابلس والجوار.

ولما كانوا قد بنوا (أي الإخوة) مدرستهم بدون ترخيص يبيح لهم حرية العمل بوجه قانوني، فقد سارعوا عبر قنصل فرنسا في الآستانة، إلى الحصول على فرمان سامٍ، أصدرهُ السلطان عبد الحميد الثاني، يتخطّى مخالفتهم في بناء المدرسة بدون إذن، ويمنحهم حق ترميمها كجزء من الدير، شرط إلا يفتح باب على أرض المسجد القديم المحاذي للمدرسة. كما يأمر السلطان في فرمانه، والي ولاية بيروت، ومتصرف سنجق طرابلس، بتسهيل مهمة «الإخوة» في عملهم،

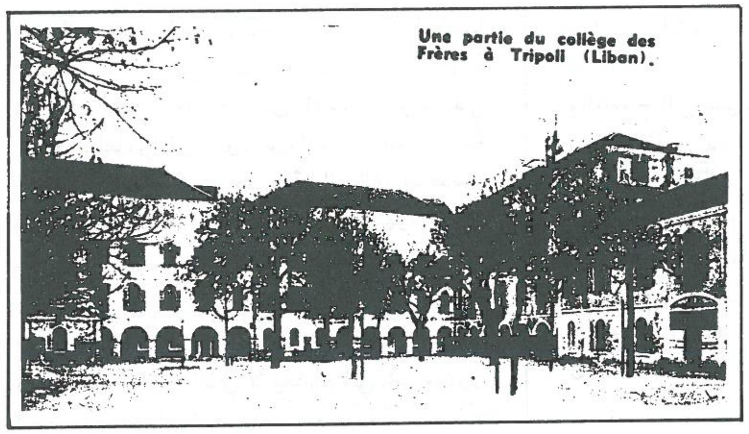

□ واجهة معهد الأخوّة في طرابلس.

وأن يسهرا على ألا يحدث ما يعارض رضاه الملكي من ابتزاز أموال أو ازعاج، وهكذا تحول دير الكبوشيين إلى بناء جديد روعي فيه جمال الهندسة والوسائل الصحية، وتبلغت مديرية المعارف في بيروت أمر البناء، لتكون على بينة من الموضوع.[٥٠]

وما كاد البناء والتدريس يتماشيان معاً، حتى شرع الإخوة «ببناء» مدرسة القديس يوسف» المجانية لمساعدة التلاميذ الفقراء العاجزين عن دفع الرسوم والتعليم وشراء الكتب وبقية اللوازم المدرسية.[٥١] وهكذا تحقق «للإخوة» تأسيس أربعة مراكز تعليمية في مدة سبع سنوات هي التالية:

١ - مدرسة العائلة المقدسة، افتتحت في ٢٨ - ١١ - ١٨٨٦. وتم تجديد بنائها سنة ١٨٩٢.

٢ - مدرسة القديس بولس في الميناء، افتتحت في ٤ - ٣ - ١٩٩٠.

٣ - مدرسة عكار، افتتحت في ٥ - ٣ - ١٨٩٠.

٤ - مدرسة القديس يوسف المجانية في طرابلس، افتتحت في ١٤ - ١ - ١٨٩٣.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن جميع مدارس الأخوة في الشمال، كانت ابتدائية، باستثناء «مدرسة العائلة المقدسة» التي كان على الراغب في متابعة التحصيل العلمي أن يلتحق بها، فتوفّر له مستوى أعلى من الدراسة في مختلف المواد المقررة. وقد ازدادت سمعة الأخوة الدينية والتعليمية تألقاً وإكباراً في الأوساط الطرابلسية والجوار معاً. وبالإضافة إلى ذلك، فقد اتسم «الأخوة» بالتوفير والاقتصاد على النفقات الضرورية من أجل التوسع والانطلاق في مناطق الشمال، هذا بالإضافة إلى المساعدات التي كانت تردهم من دير الرئاسة العامة في باريس، أو الحكومة الفرنسية، ومن بعض المحسنين الأوروبيين في فرنسا خاصة.

وحين انتشر وباء «الكوليرا» في طرابلس، هرب عدد كبير من الطرابلسيين إلى الجبال مذعورين، واغلقت أبواب جميع المدارس، إلا مدرسة القديس يوسف المجانية، فقد ظلت تستقبل التلاميذ برغم ضآلة عددهم، وتأوي بعض الأُسر التي لم تجد لها ملجأ في القرى المجاورة.[٥٢]

ولما عبرت تلك المحنة القاتلة، افتتح الأخوة مدرسة لهم جديدة في زغرتا سنة ١٩٠٤.[٥٣] وفي عام ١٩٠٧ أنشأوا في مدرسة العائلة المقدسة في طرابلس فرعاً «للمحاسبة»،[٥٤] وهو أمر جديد تماماً بالنسبة للبرامج المعتمدة

يومذاك، وقد كان برنامج المدرسة فرنسياً خاصاً، لا علاقة له بالبرامج المقررة في ولاية بيروت، مما جعل مدارس الأخوة روّاداً في المنهج العلمي في طرابلس، وما أن أطلت سنة ١٩١٣ حتى كانت مدرسة العائلة المقدسة أولى المؤسسات التي تستعمل الكهرباء في طرابلس.(٥٥)

وكان من شأن هذا الصنيع العلمي، أن انتفع التلاميذ في صفوفهم أيام الشتاء، حين يُفتقر إلى الضوء الذي لا يعادله في شيء، نور المصباح مهما يكن ساطعاً. وبنتيجة هذا كله غدت مدرسة الأخوة قبلة الانظار، وشغف بها الناس من كل جنس ودين، وتدافعوا على تسجيل أولادهم فيها. فحضنت على مقاعدها أبناء كل المذاهب والطوائف، وانخرط في صفوفها اللبناني والسوري واليوناني والإيطالي والإسباني والتركي والمصري. وما فتئت تطّرد في الإقبال والنجاح حتى داهمت الحرب العالمية الأولى العالم أجمع. ولما كانت المؤسسة فرنسية في أرض عثمانية... أغلقت أبوابها على مضض، وسمح «للأخوة» بمغادرة طرابلس إلى الاسكندرية بحرية تامة، ولم يدخلوا في طورهم الثاني إلا حين ألقت الحرب الأولى أوزارها.

وفي ٣١ تشرين الأول ١٩١٨ قدم طرابلس، من يافا، الأخ جوليان Frère Julien ليستفقد أوضاع المؤسسة المنكوبة. فاستقبله الناس استقبالاً حاراً،(٥٦) وتبعه فيما بعد عدد من الأخوة، وقرروا إعادة فتح مدارسهم تحت وطأة كل الظروف.

تلك هي نبذة عن مدارس «أخوة المدارس المسيحية» في طرابلس منذ قدومهم إلى لبنان حتى الحرب العالمية الأولى. فلنرَ الآن ما مدى مساهمة تلك المدارس، وما أثرها الثقافي والاجتماعي في طرابلس وجوارها؟

لقد لاقت هذه المدارس المصاعب الجمّة في أول الأمر، في تربة غريبة عنها تماماً، وقد زاد في صعوبة وضعها إغلاق أبوابها حيناً، وإشاحة النظر عنها حيناً آخر. وما استلزم الاستمرار في تأدية الرسالة من ضيق المكان والطموح إلى التوسع، عن طريق الشراء والبناء، وما استتبع ذلك من تأخر في الافتتاح أو الاغلاق المفاجيء، بسبب تفشي الأوبئة السارية، كالهواء الأصفر مثلاً، وعلى الرغم من ذلك فقد تمكنت هذه المؤسسة من الصمود والتوسع والاستمرار، ومن ثم تقديم الثمار اليانعة التي كان «للأخوة» فضل غرسها في تربة مدارسهم الطرابلسية.

لقد كانت مدارس «الأخوة» تلك، ابتدائية باستثناء معهد «العائلة المقدسة» الذي عرف التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي، وفرع التجارة، وكان مستوى هذا التعليم جيداً، لا تفاوت فيه بين مدرسة وأخرى. لذلك كان التلاميذ الذين لم تتح لهم فرصة متابعة دروسهم في المرحلة الوسطى والثانوية، قد نالوا بعض الثقافة. وكانوا ذوي مساهمات غير مباشرة في تلطيف الجفاء الاجتماعي. وحسبنا أن نعلم أن معظم هؤلاء التلاميذ كانوا من أبناء الفئات الميسورة، أو الساعية إلى اليسر أحياناً، فمن اعتمل فيهم اندفاع شديد إلى توظيف العلم لإبقاء صورة الوجاهة مشرقة في وجوه الفئات الأخرى. وأغلب الظن أن الذين تابعوا دروسهم لم يكونوا من أبناء الفئات الغنية الذين انصرفوا إلى التجارة، بل من أبناء الفئات الوسطى التي ارتقى أبناؤها، فيما بعد، إلى فئة الوجهاء والأعيان.

وكان مستوى أولئك التلاميذ راقياً، فالواحد منهم كان يجيد الفرنسية قراءة وكتابة ومشافهة، إجادة لافتة للنظر، ويعرف العربية الفصحى معرفة متواضعة، ويفقه الحساب في جميع ضروبه، ويلمّ بالتاريخ والجغرافيا إلماماً حسناً، ويجيد الخط. وكان مطلعاً على شئون الدين من ينابيعه، وهذه في حقيقة الأمر مؤونة غنية في المجتمع يومذاك، حتى أن مثل هؤلاء التلاميذ الذين انتزعوا من متابعة التحصيل لأسباب مختلفة، انخرطوا في

ACADÉMIE SAINT-GEORGES

RÈGLEMENT

Chapitre I — But.

Article I — « L'Académie Saint-Georges » du Collège des Frères de Tripoli a pour but :

1° — de donner à ses membres une formation littéraire spéciale ;

2° — de promouvoir au Collège le développement des « Lettres françaises » ;

3° — de fortifier les sentiments de vertueuse amitié entre Elèves et de gratitude à l'égard des Maitres.

— 4 —

Chapitre VI — Réunions.

Article XII — L'Académie se réunit chaque semaine pour la lecture et la critique des travaux littéraires. Elle offre de temps à autre des Séances publiques aux Elèves du Collège et à ses amis du dehors.

A Noël, à Pâques et à la fin de l'année scolaire, ont lieu des Assemblées générales auxquelles assistent le Frère Directeur du Collège, les Professeurs, les Membres d'honneur, les Candidats et les Elèves des premières Classes.

Chapitre VII — Dispositions spéciales.

Article XIII — L'Académie a pour devise : « Excelsior » ou « Toujours plus haut ». Ce mot sert de titre à un petit organe trimestriel relatant les principaux faits du Collège et rendant compte des divers travaux académiques. Chaque numéro de cette revue propose trois sujets que tous ses Abonnés peuvent traiter et qui sont obligatoires pour les « Membres actifs ».

Article XIV — Lors de la dernière Assemblée générale, l'Académie décerne à ses Membres les prix suivants :

a/ — Un 1er Prix pour l'ensemble des Concours académiques.
b/ — Un Prix de Composition française
c/ — Un Prix de Discours
d/ — Un Prix de Poésie
e/ — Un Prix de Déclamation
f/ — Un Prix de Lecture expressive

Article XV — La fête de Saint Georges, Patron de l'Académie, est célébrée le dernier Dimanche de l'année scolaire, jour de la 3me Assemblée générale.

Article XVI — Une promenade spéciale est faite chaque année par les Académiciens, si les circonstances le permettent.

Article XVII — Les Membres de la Société portent leurs Insignes les Dimanches et les Fêtes religieuses ou scolaires.

Tripoli, Août 1913

□ صورة قانون المحفل الأدبي للقديس جورج بعد تعديله عام ١٩١٢ ورسم لمعهد العائلة المقدسة كما كان ينبغي أن يكون.

الأعمال التجارية، فضبطوا حسابات مستخدميهم، وثمروا أموالهم، ووسعوا نطاق تجارتهم. وصار بعضهم من كبار المسؤولين في المكاتب، كما أصبحوا أصحاب شركات، وهكذا تكونت فئة اجتماعية هي فئة الموظفين التي اغتنت بالزاد العلمي الابتدائي الراقي في الحقل الذي عملت فيه.

وبالإضافة إلى تلاميذ المراحل الابتدائية، كان هناك تلاميذ المرحلتين المتوسطة والثانوية، وقد مثلوا أدواراً هامة في الحياة الاجتماعية في طرابلس والشمال بوجه عام. كما شغل هذا الصنف من الطلاب مهمات حساسة في المصارف التي كانت في طرابلس يومذاك، كالمصرف العثماني، والمصرف الألماني الفلسطيني، ومصرف سالونيك. وثمة قسم منهم التحق بالجامعات التي في بيروت وانهوا تخصصهم فيها. هذا إلى جانب الأطباء والصيادلة الذي أخذوا العلم من مدارس «الأخوة».(٥٧)

هذا بالإضافة إلى النشاطات المدرسية ذات الطابع الاجتماعي والجماعي، وقد بدأت منذ سنة ١٨٨٨، وكان يتخلل السنوات التي تلت، حفلات في المدارس تلقى فيها الخطب والقصائد والأناشيد باللغتين العربية والفرنسية.(٥٨)

وكان معهد «العائلة المقدسة» قد اختار بعض النخباء من تلامذة الصفوف العليا، فانشأ بهم محفلاً للغة العربية Acadimie de langue arabe، وقدّم أعضاؤه أمام أربعمئة (٤٠٠) مشاهد، مسرحية «نبوخذ نصّر» في العاشر من حزيران ١٨٩٢.(٥٩) وأصبح بعض الطلاب يعرضون انتاجهم في الرسم والخط أمام الأهلين ورجال الدين والرسميين في المدينة.(٦٠)

ولما رأى «الأخوة» أن المحفل المذكور قد أصبح قاصراً عن تلبية المهمات الكبيرة التي وطّدوا العزم عليها، فقد ألغوا محفل اللغة العربية، ـ الذي أنشأوه عام ١٨٩٢ ـ وأقاموا مكانه محفلاً آخر سمّوه (محفل القديس جورج: «Academie St. Georges»، لغته الفرنسية وشعاره الاكسلسيور Excelsior وذلك عام ١٩٠٨. وبهذا المحفل استقامت أوضاع النشاطات في المعهد، كما يرغب «الأخوة»، وبه بدأ عهد جديد تماماً.

ـ محفل القديس جورج:

وضع «الأخوة» لهذا المحفل ثلاثة أهداف هي:

١ ـ تقوية أعضائه باللغة الفرنسية.

٢ ـ تعميق عاطفة التلاميذ وعرفانهم الجميل تجاه أساتذتهم ومعهدهم.

٣ ـ توثيق صلات الصداقة المتبادلة بين الشباب ليتشجعوا في ممارسة الحق والواجب.

واشتمل المجلد الأولى لمحفل القديس جورج على تقارير وأعمال لعدة سنوات، بدأت سنة ١٩٠٨ وانتهت سنة ١٩١٢. وقد ظهر اهتمام بإنشاء مكتبة كبيرة تحتوي على الكتب العلمية والأدبية والتاريخية والدينية باللغة الفرنسية.

وكان في طليعة الأدباء الفرنسيين الذين اهتموا بتلك المكتبة الأديب الشهير موريس باريس (Mourice Barrés) عضو الأكادمية الفرنسية ونائب مدينة باريس حينذاك، وقد تفضل بإرسال كتابه «خمس وعشرون سنة من الأدب»، بمثابة هدية إلى تلك المكتبة.(٦١)

ومن الموضوعات التي عالجها أعضاء المحفل:

في مجال الإنسان والحياة: ما هو الكائن؟ أصل الإنسان والحيوان، الآلام، الحقيقة صنع الإرادة، النعمة، ثمن الحياة، الإنسان كما ينبغي له أن يكون، مصير الإنسان، المخيلة، الحياة معركة، وغيرها.

في مجال التاريخ: أوروبا والدول العظمى، انكلترا، المستعمرات البريطانية، التجارة البريطانية، المانيا، ايطاليا، النمسا، روسيا، دور فرنسا في أوروبا، الحلفاء، الخطر الأصفر وأوروبا، وغيرها.

في أغراض وصفية: وصف طرابلس، البحر، طواف في لبنان، زيارة إلى الأرز، البيت الأبوي، زيارة إلى المقبرة، وغيرها.

في الحكمة الإلهية: الشك، الاحتجاج بالرياضيات، العناية الإلهية، العام وما وراءه، الالحاد، الصلاة، وغيرها.

في الآداب: أصول اللغة الفرنسية، الهجاء في العصر الوسيط، النهضة، الشعر في القرون الوسطى، مدرسة مارو (Marot)، مدرسة رونسار (Ronsard)، ومونتاني (Montaigne)، ورابليه (Rabelais)، ومالرب (Malherbe)، ومدام رامبوية (Rambouillet) والاكادمية الفرنسية، وغيرها.

ـ في الدين والحياة: هل هناك ضرورة للدين؟ ماذا يحصل لو تساوت الأديان، المسيحية، المفكرون الاحرار، التساهل الديني، الأعياد المسيحية، وغيرها.

الآداب في القرنين السابع عشر والثامن عشر:

ـ المدرسة: ضرورة التربية، ضرورة التثقيف، معهد طرابلس، وغيرها.

ـ في الاقتصاد السياسي: النقابات والتعاون، الإضرابات، المال، القرض، المصرف، التجارة، الادخار والترف، السكان والفقر، الضريبة والدخل المادي، وغيرها.

ـ في الكنيسة: أصلها، الكنيسة في القرون الأولى، المرسلون، إخوة المدارس المسيحية، وجود القديسين، وغيرها.

ـ عن تركيا: نشاة الأسرة الحاكمة، تركيا في أوجها، تركيا منذ ١٥٧١ إلى سنة ١٨٠٠، السلطان عبد الحميد، تركيا الفتاة، تجارة تركيا، خطوط سكك الحديد التركية، منافذ تركيا، سوريا، لبنان، طرابلس، مستقبل تركيا وغيرها.

ـ المجتمع: العائلة، الطلاق، المجتمع اليوم، الاشتراكية، الشبيبة والإجرام، الفوائد والربا، الدولة ودورها، العمال والخدم، التربية، الخدمة العسكرية، الوطن والوطنية، الضريبة، الحرب، شروط المجتمع الراقي وغيرها.

ـ الآداب في القرن التاسع عشر: الرومانسية، التاريخ، القصة، البلاغة، النقد، الشعر، الفلسفة، الصحافة، وغيرها.

إن نظرة سريعة على هذه الموضوعات التي عالجها أعضاء المحفل باللغة الفرنسية لجديرة بكل اعتبار، بغض النظر عن الطريقة والمنهج الذي اتبع في المعالجة. فهي تدل على مدى نشاط المحفلين ومدى اطلاعهم على المعرفة في ينابيعها اللغوية والأدبية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية والدينية جميعاً. وهي في الوقت ذاته شهادة ممتازة تعطى «للإخوة» على قدرتهم التعليمية والتثقيفية، وعلى خلق فئات من ذوي الثقافة المتميزة، في زمن كان فيه الأمية والجهل يسيطران على نواحي كبيرة في سائر أرجاء السلطنة العثمانية.

وثمة شهادة أخرى تعطى «للإخوة» يوم زار مدرستهم في طرابلس، الأديب الفرنسي الشهير موريس باريس بتاريخ ٣١ أيار سنة ١٩١٣. وقد قدمت المدرسة بحضوره، إحدى مسرحياته.(٦٢) ولكن، لم تمر فترة قصيرة على هذا الحدث حتى أغلقت جميع المدارس الأجنبية في طرابلس أبوابها، باستثناء المدرسة الانجيلية. وقد توقف محفل القديس جورج عن ممارسة نشاطاته، وانتهت مرحلة هامة من أعماله دامت خمس سنوات.

لقد شاركت مدارس «الإخوة» أكثر من سواها من الإرساليات الأجنبية في خلق بورجوازية مستنيرة. ورثت الارتقاء الاجتماعي عن الأسلاف، واكتسبت العلم عن «الإخوة» ومن إليهم... وقد كانت هذه البورجوازية الجديدة عوناً للفرنسيين في ترسيخ نفوذهم السياسي ومصالحهم الاقتصادية، وأداة عطف عليهم في مجتمع لم يستطع أبناؤه، أن يتخلّصوا نهائياً من التركة الثقيلة التي خلفتها عهود السيطرة والقمع المتعددة الأشكال والألوان.

إلا أن هذه الثقافة التي حملها «الإخوة» وزودوا بها بعض المستنيرين في البلاد. قد ساعدت على خلق نوع من البلبلة الفكرية، أدت إلى قناعات أفضت بالتالي إلى انقاسامات ومناحرات اجتماعية وسياسية، شكلت بزوراً لما سُمي عند البعض «بالتعددية الحضارية»، وهي في الحقيقة ليست شيئاً من هذا، لأن الحضارة ليست نتاج أديان ومذاهب وطوائف وحسب، وإنما هي بالدرجة الأولى مُجمل الجهد المادي والمعنوي الذي يبذله شعب من الشعوب، فيشكل بالاستمرار، حلقة ارتقاء في سلسلة التقدم العام.

وبناءً على ذلك، نستطيع القول بأن الأثر الثقافي والتعليمي الذي تركه «الإخوة» خاصة الموضوعات الجديدة التي أطلعها المحفل العربي الذي أنشأوه، وأعقبه المحفل الفرنسي الذي فصلنا في نشاطه، قد خلقت جوّاً من الوعي بقضايا العصر ومشاكله الأدبية والفلسفية والتاريخية والاجتماعية عموماً، الأمر الذي أدخل إلى فئات وطبقات اجتماعية عديدة، نوعاً من الوعي جديداً، لا عهد لها به، وشكل عاملاً تحديثياً كبيراً في الوضع الثقافي والتعليمي والاجتماعي في لبنان. وهذا التحديث انعكس بدوره على سائر مناحي الفكر فيه، ودفع بها، بالتالي إلى الإمعان في البحث عن المعرفة، عبر شعابها وقطاعاتها المتعددة والمتباينة، والتي لا تنتهي.

•

مصادر ومراجع البحث

(١) HOMSY Basile: Les Capitulations a la Protection des Chrétiens au Proche-Orient, aux XVI, XVII et XVIII Sciécles imp. st. Paul. Harissa. Liban 1959. p. 7.

(٢) لوتسكي: «تاريخ الأقطار العربية الحديث» دار التقدم، موسكو، (لا تاريخ للطبع) ص ٢١.

(٣) المرجع المذكور، ص ٢١.

(٤) المرجع المذكور، ص ٢٢.

(٥) Homsy, op.cit, p. 316.

(٦) Ibid, p. 326.

(٧) الخوري، مارون عيسى: فرح انطون، من اليقظة العلمية، جروس بريس، طرابلس، لبنان ١٩٩٤، ص ٦٢.

(٨) في طرابلس العديد من المدارس القديمة المبثوثة حول المساجد، أنظر، تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك. عمر عبد السلام تدمري - دار البلاد - طرابلس، ١٩٧٤.

(٩) الخوري، مارون عيسى: ملامح من الحركات الثقافية في طرابلس، منشورات كشافة لبنان بالمساهمة مع المجلس الوطني لإنماء السياحة، سنة ١٩٨٢، ص ٩.

(١٠) المرجع المذكور، ص ١٠.

(١١) المرجع المذكور، ص ١٢.

(١٢) شيخو لويس: لبنان: مباحث علمية واجتماعية، يقرر شيخو الذي شارك في وضع الكتاب مع باحثين آخرين، أن مجيء الفرار كان عام ١٩٦٨، مطبوعات الجامعة اللبنانية، ١٩٦٩، ص ٢٣٦.

(١٣) سليمان، هلا: دور الإرساليات الأجنبية في مدينة طرابلس، رسالة ماجستير في التاريخ، مخطوط جامعة القديس يوسف، بيروت ١٩٨٢، ص ٤٠.

(١٤) شيخو، لويس: المرجع المذكور، ص ٢٣٥.

(١٥) أحد الآباء اللعازاريين: نبذة تاريخية في أصل الجمعية، مدرسة عين طورا، ص ٨٨ - ٨٩.

(١٦) ارشيف الآباء اللعازاريين في مجدليا - لبنان الشمالي، بدون ترقيم.

(١٧) المرجع المذكور.

(١٨) المرجع المذكور.

(١٩) سليمان، هلا: المرجع المذكور، ص ٤٢.

(٢٠) كراسة لمحة تاريخية عن مؤسسة الرحمة لراهبات المحبة. بدون ترقيم.

(٢١) ارشيف الراهبات. رقم ١ (بدون ترقيم).

(٢٢) المرجع المذكور، (بدون ترقيم).

(٢٣) علماً بأن مشروع إنشاء مصنع لخيوط القطن في زغرتا على مسافة تبعد عقدتين من طرابلس كان قد تحدث عنه قنصل فرنسا في طرابلس السيد ليده Laidet في رسالة بعث بها إلى وزير وسكرتير الدولة، الدوق لوزرن Luzerne، وذلك منذ عام ١٧٨٨. ISMAIL, ADEI: Le Liban, Documents Diplomatiques et consulaires& Vol. IV, p. 48.

(٢٤) سليمان، هلا: المرجع المذكور، ص ٤٥.

(٢٥) كراس لمحة تاريخية عن مؤسسة الرحمة، لا ترقيم لصفحاته.

(٢٦) شيخو، لويس، المرجع المذكور، ج١، ص ٢٣٥.

(٢٧) مجلة الكرمل، عدد ٢، حزيران ١٩٧٨، ص ٤.

(٢٨) سليمان، هلا، المرجع المذكور، ص ٤٩.

(٣٠) شيخو، لويس: الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ج ١، ص ١٢.

(٣١) العقيقي، نجيب: المستشرقون، ج ٣، ص ١٠٥٤.

(٣٢) مراجع في هذا الموضوع. Geanaropalos. g. I. Buzantine cost and latin west: Two Worlds of Christendom in middle age and Renaissance, Oxford, 1966, p 118.

(٣٣) العتريس طلال: مجلة الفكر العربي، المدارس الفرنسية في سوريا في نهاية القرن التاسع عشر، السنة ٣، عدد ٢١، سنة ١٩٨١، ص ٣١٧.

(٣٤) Jessup Henry: Appendix 1. missionaires in Syria, Mission from 1819-1908, p. 797.

(٣٥) صابات، خليل: تاريخ الطباعة في الشرق العربي: ط ٢، دار المعارف بمصر ١٩٦٥، ص ٤٧.

(٣٦) العيد المئوي لنقل المطبعة الاميركية إلى بيروت، ٨ أيار ١٨٣٤ - ١٩٣٤، ص ٣٥٢.

(٣٧) Jessup Henry: Fifty three years in syria (life in Tripoli) v. 1. p 116.

(٣٨) Hornus. g. m: Foi et vie. Cent Cinquante ans de présence évangélique au Proche-Orient 1808-1958, p 46.

(٣٩) سليمان، هلا: المرجع المذكور، ص ٦٤.

(٤٠) كراس اليوبيل الذهبي: بدون ترقيم.

(٤١) Jessup Henry: op.cit. p 306.

(٤٢) سليمان، هلا: المرجع المذكور، ص ٦٨.

(٤٣) داغر، أسعد، ألمدارس الروسية في سورية، المقتطف، ج ١٠ - ١٩٠١، ص ٩٠١.

(٤٤) مقابلة مع الدكتور وهيب نيني أحد تلامذتها في الميناء (سليمان، هلا، المرجع المذكور).

(٤٥) رزق الله، نعمة الله عبود: تذكار اليوبيل لسيادة الحبر الجليل اثناسيوس عطاالله، ص ٩١ - ٩٢

(٤٦) شيخو، لويس: لبنان، مباحث علمية، ص ٢٣٦.

(٤٧) ارشيف جمعية الإخوة، ت٢)، سنة ١٨٨٦.

(٤٨) المرجع المذكور، سنة ١٨٩٠.

(٤٩) المرجع المذكور.

(٥٠) سليمان، هلا: المرجع المذكور، ص ٨٩.

(٥١) ارشيف الإخوة، سنة ١٨٩٣.

(٥٢) المرجع المذكور سنة ١٩٠٣.

(٥٣) المرجع المذكور، سنة ١٩٠٤.

(٥٤) المرجع المذكور، سنة ١٩٠٧.

(٥٥) المرجع المذكور، سنة ١٩١٣.

(٥٦) سليمان، هلا: المرجع المذكور، ص ١٠٥.

(٥٧) المرجع المذكور، ص ١١٣ - ١١٤ - ١١٥.

(٥٨) ارشيف الإخوة، سنة ١٨٨٨ - ١٨٩٢.

(٥٩) المرجع المذكور، سنة ١٨٩٢.

(٦٠) المرجع المذكور، سنة ١٨٩٣.

(٦١) ارشيف محفل القديس جورج، ج ١.

(٦٢) ارشيف «الإخوة» سنة ١٩١٣.

حريق جسر اللحامين

• على نهر أبي علي الذي يشطر طرابلس لشطرين جسر روماني أقيم على جانبيه مخازن للتجارة ولبيع اللحوم، وقد هدمه طوفان النهر في عام ١٩٥٦.

كانت تقوم على جانبي هذا الجسر، كما قلنا سابقاً، عدة مخازن تمتلىء بالخردوات وبالجلود وبالصابون والزيوت، وقد صادف أن أحد اللحامين، نسي إطفاء النار في دكانه التي كان يشوي عليها اللحوم، فاشتعلت هذه النار وامتدت شيئاً فشيئاً إلى دكان جاره وازدادت اشتعالاً بما في هذه الدكاكين من الزيوت حتى أخذت على كل ما في المخازن المشار إليها الواقعة على جانبي الجسر من بضائع، ولم يكن آنئذ في طرابلس أية وسيلة من وسائل الإطفاء.

وقد هبّ الأهلون جميعهم لمكافحة النيران لكنهم أخفقوا وتحولت جميع البضائع إلى ركام من الخرائب. وقد أتى عزمي بك، والي بيروت للنظر في أمر المنكوبين، ولما لم تكن هناك خسارة في الأرواح، ضرب صفحاً عن مساعدة المنكوبين من التجار.